الباب الأول

الفصل الأول

العناصر السكانية في الشام قبل الفتح وموقفها منه

العرب وتوزعهم

تتميز الشام بكثرة القبائل التي كانت قاطنة فيها أثناء الفتح والتي ترد أسماؤها في مصادرنا العربية، إلا أن هنالك أسماء قبائل عربية كثيرة عديدة غير مذكورة لأنه لم يكن لعلماء الأنساب علم بها، ذكرت في التوراة وكتب اليهود الأخرى وفي المصادر اللاتينية واليونانية والكتابات الجاهلية؛ وإذا جاز لأحد الشك في أصل بعض القبائل المذكورة في كتب اليهود أو في مؤلفات الكتبة الكلاسيكيين على اعتبار أنهاأخطأت في إدخالها في جماعة العرب، فان هذا الجواز يسقط حتماً بالنسبة إلى القبائل المذكورة في الكتابات الجاهلية وبالنسبة إلى القبائل التي دونت تلك الكتابات، فهي كتابات عربية وان اختلفت عن عربيتنا، وباينت لهجتها لهجتنا.

سُئل أحد علماء العربية عن لسان حمير، فقال: «ما لسان حمير وأقاصي اليمن بلساننا، ولا عربيتهم بعربيتنا[1]». ولكن علماء العربية لم يتنصلوا من عروبة حمير ولا من عروبة غيرهم ممن كان يتكلم بلسان مخالف للساننا، بل عدوهم من صميم العرب، وقد ألقت المكتشفات الأثرية الأضواء على كثرة وجود العرب في الشام، فالنصوص

(١) محمد بن سلام الجمحي، طبقات الشعراء، ليدن، ١٩١٣، طبعة أوفست بيروت، دار النهضة ص /٤/.

الكثيرة المنقوشة على صخور البازلت في المنطقة التي يطلق عليها اسم الصفا في الجنوب الشرقي من دمشق تشير إلى أن السكان الذين نقشوا تلك النصوص في القرون الميلادية الأولى هم من أصل عربي، فلغتهم لهجة عربية وكتابتهم تمت إلى الكتابات التي وجدت في جنوب الجزيرة العربية، وأهمية هذا الاكتشاف هو أن علماء الآثار قد تعرّفوا على عرب الصفا قبل أن يمتزجوا بغيرهم امتزاجاً تاماً، فتعرّفوا بواسطة هذه النقوش على كتاباتهم وآلهتهم وعاداتهم[٢]، كما أن الرأي السائد اليوم بين العلماء أن الأنباط عرب مثل سائر العرب وان استعملوا الآرامية في كتاباتهم، ولم يذكرهم الاخباريون، بدليل أن أسماءهم أسماء عربية خالصة، وأنهم يشاركون العرب في عبادة الأصنام المعروفة عند عرب الحجاز مثل ذي الشرى واللات والعزّى، وأنهم رصعّوا كتاباتهم الآرامية بكثير من الألفاظ العربية، وبدليل إطلاق اليونان واللاتين والمؤرخ اليهودي (يوسفوس) كلمة العرب على الأنباط واطلاق اسم العربية الصخرية Arabia Petraea على أرضهم، ولو لم يكن الأنباط عرباً لما أطلق الكلاسيكيون اسم العرب عليهم، وما كانوا ليدخلوا بلادهم ضمن العربية ويجعلونها جزءاً من أجزائها الثلاثة[٣]. أما استخدام الأنباط للآرامية في كتاباتهم فيعود إلى أن الآرامية كانت قد تغلبت على أكثر لغات الشرق الأدنى، وصارت لغة الكتابة والتدوين والتجارة في هذه المنطقة قبل الميلاد وبعده بقرون، تغلّبت على العبرانية مثلاً وزاحمتها حتى فضلّت عليها عند المتكلمين بها من الخاصة والسواد إلى نهاية القرن السابع بعد الميلاد[٤]، فلا عجب أن يدون الأنباط وغيرهم من العرب بالآرامية، لغة الفكر والثقافة والتجارة، وأن يتكلموا بلغة أخرى هي لغة اللسان. وقد كان الأعاجم في الاسلام يتكلمون بألسنة أعجمية ويدونون باللسان العربي، لسان القرآن والعلم والفكر. وما ذكرناه عن الأنباط ينطبق على سكان تدمر، فقد أخذ العنصر العربي بالمعنى الأصلي للكلمة يتغلب عليها تدريجياً اعتباراً من مطلع الألف الأول قبل الميلاد، حتى أصبح هذا العنصر حوالي العهد السلوقي هو النواة

---

(٢) رينيه دوسو، العرب في سورية قبل الإسلام، ترجمة عبد الحميد الدواخلي، القاهرة، ١٩٥٩، ص /١/.

(٣) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، الطبعة الثالثة ١٩٨٠ م ج ٣ ص/٩/.

(٤) المصدر السابق، ج ٣ ص /١٠/.

الثابتة في تدمر والغالبة عليها، وتلك نتيجة توصل إليها الباحثون، ونوه بها البعض تنويها وأكدها البعض الآخر تأكيداً جازماً[٥]، كما أكدتها أحدث دراسة في أسماء الأعلام التدمرية[٦]، وكانت القبائل العربية في بادية الشام ترفد مدينة تدمر بصورة خاصة نظراً لكونها أكبر مركز في تلك الأرجاء، ولاقتصادها التجاري القافلي الذي يحتاج للرجال والخيل والجمال وتوطيد العلاقات البدوية الحضرية على أساس المصلحة المشتركة، وأقدم الكتابات التدمرية حافلة بالأسماء العربية الصريحة سواء بالنسبة للأشخاص أو القبائل[٧].

بالإضافة إلى الأنباط والسكان العرب في تدمر، فان مدينة حمص كانت تحت سلطان أسرة عربية قبل وصول بومبي إلى سورية والدليل على عروبتها، أن أمراءها يحملون أسماء ذات طابع عربي خالص شبيهة بتلك التي عثر عليها العلماء في نصوص صفوية[٨]. وحكمت أسر لها نفس الأسماء العربية بلدة الرها، كما أن الايتوريين، وهم من أصل عربي[٩]، كانوا يسيطرون على مملكة تقع في لبنان الداخلي عاصمتها خلكيس Chalcis عنجر في البقاع، ومن هناك إمتد سلطانهم في لبنان حتى الشاطيء الفينيقي،

---

(٥) Cock. G.A.A Text Book of North Semetic Inscriptions, Oxford, 1903, P.264. The bulk of the Population of Palmyra Was of Arab race. Hence many of the Proper names are Arabic and Several Arabic Words Occur.

(٦) Stark, J.K., Personal names in Palmyrene Inscriptions, Oxford, 1971, P.20. Astatistical Survey of the names given in the main list Would show that more than half of them can be best explained through Arabic, or can have a Possible Arabic etymology, When one further Considers that names like HYRN, MGYMW, MLKW Which Lexically require an Arabic explanation are attested With far greater frequency than other names, the balance Weighs even more in favour of Arabic.

(٧) عدنان البني، تدمر والتدمريون، رسالة دكتوراة منسوخة، دمشق ١٩٧٧، ص ٩٢.

(٨) دوسو، العرب في سورية قبل الإسلام، ص /١١/.

Donner, The Early Islamic Conquest, Princeton, New Jersey, P.95

(٩) Jones, V., Journal of Roman Studies, 1931 P. 257.

وكانوا يقلقون جبيل Byblos وبيروت Beryte إلى أن تدخل بومبي ليضع حداً لتعسفاتهم[١٠].

ثم ان الدراسات التي قام بها رينان تبين أن أسماء الأعلام العربية التي تقدمها النصوص التي اكتشفت في حوران لها ما يماثلها في دمشق وحمص وتدمر[١١]، كما يشير رينان إلى ذلك الضبط التام الذي كتبت به الأسماء العربية في النقوش مما يثير انتباه الفقيه اللغوي، فقد روعيت فيها أدق خصائص اللغة العربية، والتوافق الموجود بين خصائص العربية قبل الاسلام والعربية التي يتحدث بها اليوم هو توافق يدعو إلى العجب حقاً[١٢]. ويضيف دوسو أن آلاف النصوص التي ظهرت منذ ذاك الوقت حتى الآن في شرقي سورية، سواء أكانت نصوصاً أغريقية أم نبطية أم صفوية، إلى جانب نصوص ثلاثة عربية قبل الاسلام أكّدت صدق آراء رينان التي استوحاها من دراسته لاثني عشر نصاً إغريقيا قد كتبت كتابة ناقصة، وكان رينان قد نشر آراءه في مذكرة عنوانها «في بعض أسماء عربية موجودة بنقوش إغريقية في حوران[١٣]». هذا وان اكتشاف نقش بيزنطي رسمي مكتوب باللغات الثلاث، الاغريقية والسريانية والعربية، بالقرب من حرّان وعائد إلى النصف الثاني من القرن السادس الميلادي، يكشف أن المتكلمين باللغة العربية كانوا يشكلون نسبة لا يستهان بها، وإلا لما كتب النص بالعربية بالإضافة إلى اليونانية لغة الإدارة والحكم، والسريانية وهي اللغة التي كان يتكلم بها القسم الأكبر من السكان في سورية[١٤].

ومن سوء الحظ أن المصادر العربية لا تقدم سوى معلومات شديدة الغموض فيما يتعلق بهجرة العناصر العربية إلى الشام والآثار التي تركتها، ولولا التأييد الذى حصل عليه العلماء، من النقوش الكتابية ومن مؤلفات معاصرة، لأضحت هذه المعلومات عديمة الجدوى.

---

(١٠) دوسو، المصدر السابق ص ١٤. Donner, Op. Cit. P.95

(١١) المصدر السابق، ص ١٤.

(١٢) المصدر السابق، ص ١٥.

(١٣) المصدر السابق، ص ١٥.

(١٤) Donner, Op. Cit P.95.

يشير اليعقوبي أن قضاعه كانت أول من قدم الشام، وكان أول من قدمها من قضاعه تنوخ، فملكهم الروم على من ببلاد الشام من العرب، ثم غلبت بنوسليح[١٥].

أما الطبري، فيذكر بأن كثيراً من تنوخ الذين كانوا قد توجهوا مع مالك وعمر ابني فهم ومالك بن زُهير لحقوا بالشام إلى من هنالك من قضاعة، بعد أن ضبط أرد شير بن بابك أول ملوك الساسانيين العراق لأنهم كرهوا أن يقيموا في مملكته[١٦]، أي أن هذه الهجرة نحو الشام كانت حوالي النصف الأول من القرن الثالث الميلادي لأن أرد شير بن بابك هو مؤسس السلالة الساسانية التي يبدأ حكمها سنة ٢٢٥ م. أما الهجرة الأولى من قبائل تنوخ[١٧]سواء نحو العراق أو الشام فربما كانت في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي.

ونستنتج مما يرد عند الطبري واليعقوبي والمسعودي وابن عبد ربه وغيرهم أن تنوخ التي استقرّت في الشام كانت من قبائل قضاعة، وأن بني سَليح غلبت عليهم وتنصرّت فملكتها الروم على العرب الذين بالشام، وبنو سليح هم عرب نسبهم النسابون إلى سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف من قضاعة[١٨]، ثم صارت غسان إلى الشام فقدموا أرض البلقاء وسألوا سليحا أن يدخلوا معهم فيما دخلوا فيه من طاعة ملك الروم، فكتب سليح إلى ملك الروم وكان منزله بأنطاكية فأجابهم إلى ذلك وشرط عليهم

---

(١٥) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي، دار بيروت للطباعة والنشر ١٣٧٩ هـ ١٩٦٠ م، ج ١ ص ٢٠١.

(١٦) الطبري، تاريخ الرسل والملوك، تحقيق أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف ـــ الطبعة الثانية ج ٢ ص ٤٢.

(١٧) تنوخ: حي من اليمن اختلف النسابون فيه، فقال ابن خلدون بأنهم من بني أسد بن وبره بن تغلب بن حلوان بن مرو بن الحافي بن قضاعة، وقال الزبيدي تنوخ قبائل اجتمعت وتألفت منهم بنوفهم، وقال الزمخشري، تنوخ قبائل تحالفت فتنخت في مواضعها، وقال النويري: تنوخ وهو مالك بن زهير بن عمرو ابن فهم بن تيم الله بن أسد، وقال ابن عبد ربه وأبو الفداء، تنوخ من قبائل قضاعة، وقال ابن سعيد: ومن الناس من يطلق تنوخ على الضجاعمة ودوس الذين تنخّوا بالبحرين، ويذكر الطبري أن تنوخ تضم قبائل عدة من العرب تحالفوا على التنوخ وهو المقام وتعاقدوا على التوازر والتناصر، فصاروا يداً على الناس، وضمهم اسم تنوخ. الطبري ج ١ ص ٦١٠، عمر رضا كحاله، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، بيروت، ج ١ ص ١٣٣، ١٣٤.

(١٨) ابن عبد البر، الأنباه على قبائل الرواه، القاهرة، ١٣٥٠ هـ ص ١٢٣ ؛ المسعودي مروج الذهب ومعادن الجوهر، دار الأندلس، الطبعة الثانية، بيروت ١٣٩٣ هـ عام ١٩٧٣ م ج ٢ ـــ ص ٨٣.

شروطاً[١٩] ، أما ابن عبد ربه فيذكر أن سليح هو عمرو بن حلوان بن عمران ، بينما الضجاعمة هم من بني سعد بن سليح ، وأن الضجاعمة هم الذين كانوا ملوك الشام قبل غسّان[٢٠] ويبدو مما يذكره المستشرق نولدكه أن الضجاعمة كانوا عمّالاً للروم على عرب مشارف الشام وأن جدّهم ضجعم عاش في أواخر القرن الرابع للميلاد وأخذ من الروم لقب فيلارك Phylarch[٢١] ، وأنه تنصّر وتنصّر معه عدد كبير من أتباعه ، ولم يتغلب الغساسنة على الضجاعمة بسهولة ويسر ، على أن هذا النصر الذي أحرزه الغساسنة على بني سليح لم يؤد إلى زوالهم ، أوزوال الضجاعمة نهائياً أو هجرهم للمنطقة ، إذ يرد ذكر بني سليح بن حلوان في حاضر قنسرين[٢٢] كما كان الضجاعمة من القبائل العربية المعروفة عند ظهور الاسلام ، فقد وقفوا مع سكان دومة الجندل في عنادهم ومقاومتهم لخالد بن الوليد وكان رئيسهم إذ ذاك ابن الحَدْرَجان[٢٣] ، كما زار الشاعر النابغة الذبياني أحدهم ببصرى وذكر ذلك في إحدى قصائده :

لعمري ، لنعم المرء من آل ضَجْعَم
نزور ببصرى أو ببرقـــــة هارب[٢٤]

أما الغساسنة فهم باجماع النسابين من الأزد ، أزد اليمن ، التي افترقت فيما ذكره ابن عبد ربه وغيره من علماء النسب على نحو من سبع وعشرين قبيلة منهم الأنصار — الأوس والخزرج ، وكل الأوس والخزرج غسّاني إلا ما كان منهم بِعُمان[٢٥] . وقد شذ عن الخزرج قبيل من قبائلها كانت دارهم الشام فهم غسّانيون ، وليسوا في الأنصار ، إلا رجلين كانا بالمدينة فأسلما ونصرا مع قومهما من الأنصار ، وهما أبو الدرداء ، وعدى

(١٩) اليعقوبي ، تاريخ ، ج ١ ص ٢٠٧ ، المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ — ص ٨٣ .
(٢٠) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ، ١٣٧٢ هـ/١٩٥٢ م ج ٣ — ص ٣٧٣ .
(٢١) نولدكه ، أمراء غسان ، ص ٦ .
(٢٢) البلاذري ، فتوح البلدان ، تحقيق محمد رضوان ، المكتبة التجارية الكبرى ، مصر ، ص ١٥٠ .
(٢٣) الطبري ، ج ٣ ص ٣٧٨ .
(٢٤) النابغة الذبياني ، الديوان ، تحقيق وشرح كرم البستاني ، دار بيروت صادر ، ص ٢٥ .
(٢٥) ابن عبد البر ، الانباه على قبائل الرواه ، ص ١٠٦ .

بن كعب من الخزرج[٢٦] . ويذكر ابن حزم أن الغساسنة بطون شتى من الأزد ، ومن بطون غسّان التي سكنت الشام أولاد جَفْنة بن عمرو مُزيقياء[٢٧] وكانت ديار ملوك غسّان باليرموك والجولان وغيرهما من غوطة دمشق وأعمالها ومنهم من نزل الأردن من أرض الشام[٢٨] ، ويستفاد مما يذكره الشعراء أن مركز الجفنيين الأهم كان الجولان الذي كان يقع في ولاية فلسطين الثانية[٢٩] ، كما يذكر هؤلاء الشعراء أن الغساسنة كانوا يقيمون بالقرب من دمشق في موضع على نهر بردى يعرف بجِلّق[٣٠] ، يقول حسّان بن ثابت :

للـــــه درّ عصابـــــــة نادمتهم
يومـــا بجِلّـــق في الزمـــــان الأول
يسقـــــون من ورد البريص[٣١] عليهم
بردى يصفـــق بالرحيـــق السلسل

كما يذكر في قصيدة أخرى :

أنظر خلـــيلي ببطـــن جلّـــق هل
تؤنس دون البلقـــاء من أحـــــد[٣٢]

---

(٢٦) المصدر السابق ، ص ١٠٧ .

(٢٧) ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣٥١ ؛ المسعودي ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢٨) المسعودي ، المصدر السابق ، ج ٢ ص ٨٣ .

(٢٩) فلسطين الثانية Palestina Secunde كان مركزها بيسان ومدنها الرئيسية جدرة وطبرية .
Le Strange, Palestine and the Muslims, 1890, P. 26.

(٣٠) نولدكه ــ أمراء غسان ، ص ٥ .
يرى ياقوت الحموي أن جلق هو اسم لكورة الغوطة كلها ويضيف وقيل جلّق موضع لقرية من قرى دمشق ، معجم البلدان ج ٢ ص ١٥٥ .

(٣١) يستنتج ياقوت الحموي من قصيدة حسان المذكورة ومن قصيدة وعله الجرمي «ولا سرطان أنهار البريص» على أن البريص اسم الغوطة بأجمعها ، فيقول : «ألا تراه نسب الأنهار إلى البريص ، وكذلك حسان فانه يقول : يسقون ماء بردى من ورد البريص» . معجم البلدان ج ١ ص ٤٠١ ، محمد كرد علي ، غوطة دمشق ، مطبوعات المجمع العلمي ، دمشق ، الطبعة الثانية ص ١١ .

(٣٢) حسان بن ثابت ــ الديوان ، تحقق وليد عرفات ، دار صادر ، بيروت ١٩٧٤ م ج ١ ص ٢٧٩ .

وذكر حسّان مواضع عديدة تقع في ملك غسان من جنوبي الجولان إلى أطراف دمشق[٣٣] ولم تكن سلطة الأمير الجفني تقف عند حدود ولاية ما، بل كانت تتجاوزها وتمتد على كل القبائل الرحل، أو شبه الرحل التي كانت دائماً أو في أوقات معلومة في فلسطين الثانية، والولاية العربية وفينيقية لبنان، وربما أيضاً في ولاية سورية الشمالية، أما في البيداء فان ملكه كان يمتد إلى الحد الذي كان العرب يخشون فيه بأسه وسلاحه، أي إلى ما وراء سلسلة القلاع الأخيرة التي تعين حدود امبراطورية الروم[٣٤]، وبالرغم من المنطقة الواسعة التي كان يمتد إليها النفوذ الغسّاني، فإننا لا نرى كما يقول نولدكه إشارة إلى أن الغساسنة كانوا يمتلكون أياً من الأماكن الحصينة أو من المدن التي كانت مراكز للجيش، كدمشق، وبصرى أو تدمر التي حصنها جوستينان[٣٥].

ويبدو أن دخول الفرس لبلاد الشام سنة ٦١٣ ــ ٦١٤ م ضعضع ملك بني جفنه ففر بعض أمرائهم إلى بلاد الروم والتجأ البعض الآخر إلى داخل الصحراء، ومن الطبيعي أن لا يترك الفرس في الشام عمال الروم من العرب، وكانوا قد ذاقوا منهم الامرّين، ويؤيد هذا الافتراض ما يذكره حسّان من تهدم ملك بني غسّان وكيف أن بطريق الفرس (وكان لقب بطريق قد أصبح شائعاً بين أهل تلك البلاد) قد سطا على ملك بني غسّان وتربّع في عقر دارهم وأباح رعاية الإبل فيها حتى جبل الحارث في الجولان[٣٦]. أما

---

(٣٣) المصدر السابق ص ٧٤، ٢٥٥، ٢٧٩،
القصيدة رقم ١٣ ــ

أسألت رسم الـــــدار أم لم تسألِ ... بين الجوالي فالبضيـــع فحومـــل
والمرج مرج الصُّفَّريـــن فجـــاسم ... فديـــار سلمـــى (٥٦) تحلّـــل

القصيدة رقم ١٢٣ ــ

لمن الـــــدار أوحشت بمعـــــان ... بين أعلى اليرمـــوك فالخمّـــان
فالقريّـــات من بلاس فداريـــا ... فسكـــاء فالـــقصور الـــدواني
فقفـــا جاسم فأوديـــة الصفـــر ... مغنـــى قنابـــل وهجـــان

القصيدة رقم ١٣٦ ــ

من دون بصرى وخلفهـــا جبـــل التلـــج عليـــه السحـــاب كالقـــدد

(٣٤) نولدكه، امراء غسان، ص ٥١، النابغة الذبياني، الديوان، ص ٤٣، ٥٥.
(٣٥) نولدكه، المصدر السابق، ص ٥١، نقلاً عن ملالا ١٥٢/٢، تيوفانس ص ٢٦٧.
(٣٦) حسان بن ثابت، الديوان، ص ١٩٤، قصيدة رقم ــ ٨٤ ــ

قصيدته التي أنشدها على ما يبدو قبل هجرة النبي (صلعم) بزمن قليل، فتدل على أن منطقة نفوذهم كانت تمتد من جبل الشيخ إلى أيله[٣٧]، وفي فترة الفتوح، تذكر المصادر العربية وجود قبائل غسّان في مؤتة[٣٨]، وفي مرج راهط[٣٩]، ومرج الصُفَّر[٤٠]، والثَنِيَّه[٤١]، ومرج عذرا[٤٢]، ومعظم هذه المناطق قريبة من دمشق.

بالإضافة إلى قبائل غسّان ترد أسماء قبائل كلب في بادية الشام في قراقر وسوى مع قوم من بهراء[٤٣] وكانت مساكن كلب السماوة ولا يخالط بطونها في السماوة أحد، ويحدد الهمداني مناطق سكناها من حوران في ديار كلب عن يمينك في السماوة ثم في الدهناء إلى أن ترى نخل الفرات ولا يخالط كلباً سواها[٤٤]، أما ديار عاملة فمجاورة للأردن، وجبل عاملة مشرف على عكا وإلى الغرب من حمص تقع أرض بهراء[٤٥]، ويطلق الاخباريون لفظ عرب الضاحية أو المستعربة عندما يذكرون القبائل العربية في الشام أثناء الفتح، ففي رواية السَّرى عن شُعيب عن سيف: «أن أبا بكر أمر خالد بن سعيد أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه.... فأقام

أبـاح لها بطريـق فارس غائطـا ... له من ذرى الجولان بقـل وزاهـر
تربّـع في غسّان أكنـاف محجـل ... إلى الحارث الجولان فالنـي ظاهـر

(٣٧) المصدر السابق ص ٣٠٨ ــ قصيدة رقم ــ ١٨٣ ــ

من يغـر الدهـر أو يأمنـه ... من قبيـل بعـد عمـرو وحجـر
ملكـا من جبـل الثلـج إلى ... جانبـي أيلـة من عبـد وحـر
أتيـا فارس في دارهـم ... فتناهـوا بعـد إعصام بقـر
ثم صاحـا يا آل غسان اصبروا ... انـه يوم مصالـيت صبر

(٣٨) الواقدي، المغازي، ج ١ ص ٤٠١.

(٣٩) البلاذري، فتوح، ص ١١٩؛ الطبري، ج ٣ ص ٤٠٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٣٥، ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج ٢ ص ٤٠٩؛ ابن حبيش، الفتوح، مخطوطة، ص ١٣٧.

(٤٠) الطبري ج ٣ ص ٤١٠.

(٤١) الأغاني، ج ١٥ ص ١٦٤.

(٤٢) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٣٩.

(٤٣) البلاذري، فتوح، ص ١١٨؛ وقراقر، واد لكلب بالسماوة، وسوى، ماء لبهراء من ناحية السماوة. مؤلف مجهول، العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ص ٥.

(٤٤) الهمداني، صفة جزيرة العرب، تحقيق محمد علي الاكوع الحوالي، منشورات دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، الرياض، ص ٢٧٢، وص ٢٧٤.
المصدر السابق، ص ٢٧٢.

فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث .... فنفر إليهم من بهراء وكلب وسليح، وتنوخ، ولخم وجذام وغسّان[٤٦].

أما في أحداث سنة ١٤ هـ فيذكر الطبري نقلاً عن ابن اسحاق، أن هرقل سار في الروم حتى نزل أنطاكية، ومعه من المستعربة لخم وجذام وبلقين وبلي وعاملة[٤٧]، ثم يضيف ثانية، ومعه من المستعربة من غسّان وتلك القبائل من قضاعة، وعندما يطلق الاخباريون لفظ العرب المستعربة فهم لا يقصدون نسبها، لأن من بينها من هو من أصل قحطاني، على حسب مذهب أهل الانساب في نسب القبائل، وإنما يريدون من هذا المصطلح القبائل التي كانت قد سكنت في الشام وأطرافها وخاصة، تلك التي دانت بالنصرانية وتأثرت بالثقافة الآرامية وبلهجتها، وذلك لظهور هذا الأثر فيها وعلى لهجتها خاصة، مما حدا بعلماء اللغة أن يتحرجوا في الاستشهاد بشعرها في قواعد اللغة[٤٨]. وقد فضلت غالبية القبائل العربية المستعربة السكنى في أطراف المدن في مواضع قريبة من البوادي، عرفت عندهم بالحاضر، فكان في أكثر مدن الشام مثل حلب، ودمشق، وقنسرين وحمص حاضر يقيم فيه العرب، فكان حاضر قنسرين لتنوخ ومنهم بنوسليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة[٤٩]، كذلك كان يسكن في طرف قنسرين قبائل طيء، ويطلق على منطقة سكناهم بحاضر طيء نزلوا بها في الجاهلية على أثر الحروب التي وقعت فيما بينهم واستدعت تفرّقهم[٥٠] وكان بقرب مدينة حلب حاضر يدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم[٥١]. ويذكر ابن حزم «أن قبيلة جديله من ولد فطرة بن طيء وتيم الله وحبيش والأسعد جلوا كلهم عن الجبلين في حرب الفساد فلحقوا بكلب وحاضر طيء[٥٢]»

(٤٦) الطبري، ج ٣ ص ٣٨٩؛ ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٠٢؛ تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ١٣١.
(٤٧) الطبري، ج ٣ ص ٥٧٠، البلاذري، فتوح ص ١٤٠.
(٤٨) جواد علي، المفصل في التاريخ، ج ٦ ص ٢١٦.
(٤٩) البلاذري، فتوح، ص ١٥٠.
(٥٠) المصدر السابق، ص ١٥١.
(٥١) المصدر السابق، ١٥١.
(٥٢) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب، ص ٣٧٥.

بالإضافة إلى هذه المناطق وجد العرب في بعلبك[٥٣]، وفي قيسارية[٥٤]، ويبدو أن منطقة فلسطين كانت آهلة بالقبائل العربية إذ يذكر ابن الأعثم اجتماع الروم في أجنادَين وأن أهل البلاد من نصارى العرب قد وعدوهم بالمساعدة[٥٥]، كما يطلق الطبري على أرض فلسطين أرض قضاعة[٥٦]. إلى جانب العرب وجد الفرس في بَعلبك[٥٧]، وحمص وأنطاكية[٥٨]، والسامرة واليهود في قيسارية[٥٩]، والأردن وفلسطين[٦٠]، واليهود في حمص ومدن أخرى[٦١]، والجراجمة في جبل اللُّكام[٦٢]، والروم ومرتزقتهم في مدن الساحل[٦٣]، وفي المدن الداخلية كايلياء وبصرى ودمشق وحمص وتدمر[٦٤]، وحلب، يضاف إلى هؤلاء تلك الطبقة التي يطلق عليها المؤرخون العرب لفظ العلوج أو النبط[٦٥]، ويستنتج من الروايات الواردة في لسان العرب كثرة النبط في العراق والشام في منطقة الأرياف والمدائن[٦٦]، كما أن النصوص المبعثرة في المصادر تحوي قرائن مثل الأرض والقرى والزراعة وكلها تدل على أن المقصود بالنبط طريقة الحياة وليس النسب،

---

(٥٣) البلاذري، فتوح، ص ١٣٦.

(٥٤) المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٥٥) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٤٣.

(٥٦) الطبري، ج ٣ ص ٤٠٨.

(٥٧) البلاذري، فتوح، ص ١٢٤، ١٣٦.

(٥٨) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٥٩) المصدر السابق، ص ١٤٧.

(٦٠) المصدرالسابق، ص ١٤٧.

(٦١) المصدر السابق، ص ١٤٣.

(٦٢) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٦٣) المصدر السابق، ص ١٢٤.

(٦٤) ابن الأعثم فتوح، ج ١ ص ١٤٠.

(٦٥) المصدر السابق، ج ١ ص ١٧٤، ابن عساكر، تاريخ دمشق، المجلدة الأولى، ص ١٨٧.

(٦٦) ابن منظور، لسان العرب، مادة نبط، ورد في لسان العرب أنهم انماسموا أنباطا لاستنباطهم ما يخرج من الأرضين، وفي حديث عمر رضي الله عنه، «تمعددوا ولا تتنبطوا» أي تشبهوا بالنبط، وفي الحديث الآخر: لا تتنبطوا في المدائن أي لا تشبهوا بالنبط في سكناها واتخاذها العقار، ومنه حديث عمرو بن معد يكرب، سأل عمر عن سعد بن أبي وقاص، فقال: أعرابي في حبوته، نبطي في جبوته، أراد أنه في جباية الخراج وعمارة الأرضين كالنبط حذقاً.

أما المسعودي، فيشير إلى أن النبط هم السريان الذين يسكنون العراق والجزيرة والشام[٦٧]، ويبدو أن الدكتور جواد علي قد أخذ برأي المسعودي، ولكنه جعله أكثر شمولاً فهو يعتبرهم بقايا الشعوب القديمة التي سكنت بلاد الشام والعراق ومترسبات الآراميين في هاتين المنطقتين وذلك قبيل الإسلام وفي الإسلام[٦٨]، وكان النبط يتكلمون بلهجات عربية ولكن برطانة أعجمية، وبلكنة غريبة ظاهرة، وقد ضرب المثل في رطانة كلام النبط بالعربية وقبحه «وقد قبح الكلام وصار على كلام النبط[٦٩]».

هذه هي العناصر السكانية التي وجدت في الشام إبان الفتوح، إلا أنه من الصعب أن نتبين نسبة هؤلاء بعضهم إلى بعض، فالروايات لا تذكر عدد السكان إلا عرضاً، كما أنها لا تذكر سوى المقاتلة أحياناً مع اختلاف كبير في الأرقام بين رواية وأخرى، ففي الحديث عن فتح قيسارية مثلاً نجد أن عدد السامرة ثلاثون ألفاً حسب رواية البلاذري، وثمانون ألفاً عند ابن عساكر وياقوت الحموي، أما عدد اليهود فهو عند البلاذري وابن عساكر مائتا ألف وعند ياقوت مائة ألف، وعدد مقاتلة الروم حسب رواية هشام بن عمّار أثناء محاصرة معاوية لها كان (٧٠٠) ألف من المرتزقة وكان يحرسها في كل ليلة على سورها مائة ألف[٧٠]، أما ابن عساكر وياقوت فيشيران إلى أن مقاتلة الروم فيها كانوا مائة ألف[٧١]. ونجد نفس هذا الاختلاف عند ذكر المقاتلة من المستعربة العرب، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء بمائة ألف من الروم ومائة ألف من العرب المستعربة[٧٢]، ويذكر ابن الاعثم أن جبلة بن الايهم الغساني نزل الغوطة من أرض دمشق في أربعين ألفاً من العرب المتنصرة بالخيل والعدد والسلاح[٧٣]، أما ابن اسحاق فيشير أن عدد المستعربة

---

(٦٧) المسعودي، التنبيه والأشراف، ص ١٥١.

(٦٨) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٣ ص ١١.

(٦٩) الأغاني، ج ٥ ص ١٦.

(٧٠) البلاذري، فتوح، ص ١٤٧.

(٧١) تهذيب تاريخ دمشق، ج ٤ ص ٣٩٩، ياقوت الحموي، معجم البلدان، مادة قيسارية.

(٧٢) الطبري، ج ٣ ص ٣٧، تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٩٤، ٩٨.

(٧٣) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٢٥.

من غسّان وتلك القبائل من قضاعة التي كان يقودها جبلة بن الأيهم الغسّاني في معركة اليرموك، كان عددهم اثنى عشر ألفاً[٧٤]. إن هذه الروايات بالرغم من اختلافها تظهر بأن العرب كانوا نسبة سكانية لا يستهان بها في المنطقة، لاسيما بعد أن جلا قسم كبير من أهل المدن الساحلية كصيدا وعَرَقه، وجبيل، وبيروت[٧٥]، وجَبلة[٧٦]، كما نفهم من روايات أخرى جلاء سكان المدن الداخلية، ففي دمشق مثلاً يذكر الواقدي أن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية[٧٧]، كما جلا قسم من أهل حمص عنها[٧٨].

إن القبائل التي كانت قاطنة في الشام في الفترة السابقة للفتح كانت إما قضاعية أو قحطانية، وكانت النصرانية منتشرة فيهم وأكثر وضوحاً وأوسع انتشاراً منها بين عرب العراق، فأمراء الغساسنة عند ظهور الإسلام وسادات القبائل النازلة في مناطق حكم الروم ونفوذهم كانوا على هذه الديانة[٧٩]، وإن كانوا على مذهب يخالف مذهب البيزنطيين، فالنصرانية وجدت المساعدة الرسمية من الروم في بلاد الشام، وكان لدخول الرؤساء فيها أهمية كبيرة في انتشارها، لأن ذلك يؤدي إلى حصولها على الحماية الرسمية، وعلى انتشارها في قبيلة الرئيس محاكاة وتقليداً لعمله[٨٠]، ونظراً لاعتناق سكان الشام عامة للمذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة الالهية الواحدة للمسيح، هذا المذهب الذي اعتبر هرطقة بموجب قرارات المجمع الكنسي الذي انعقد في خلقدونية سنة ٤٥١ م فان كثرة كثيرة من المؤرخين يرون أن انتشار العرب في هذه المنطقة واضطهاد سكان الشام من قبل البيزنطيين دينيا كانا من أكبر العوامل التي مهّدت للفتح العربي طريقه وأعانت عليه[٨١]، وليس منهم من يذكر هذه العلاقة بين عرب

(٧٤) الطبري، ج ٣ ص ٥٧٠.
(٧٥) البلاذري، فتوح، ص ١٣٣، ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٣٣.
(٧٦) ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٩٢.
(٧٧) البلاذري، فتوح ص ١٢٨.
(٧٨) المصدر السابق، ص ١٣٧.
(٧٩) ابن حزم، جمهرة انساب العرب، ص ٤٥٧.
(٨٠) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب، ج ٦، القسم الديني، ص ٢١٣.
(٨١) د. ابراهيم العدوي، الامبراطورية البيزنطية، والدولة الإسلامية، ١٣٧٠ هـ/١٩٥٣ م وقد اعتمد في ذلك

الجزيرة وعرب الضاحية الا ويشير إلى أثرها في سرعة الاستجابة وتحقيق النصر ، حتى أن فيليب حتي يرى أن الفتح كان حركة قومية وأن الفوز فيه كان للقومية العربية لا للدين الاسلامي[٨٢] .

لا نستطيع في الواقع أن نطلق القول في هذه القضية منكرين له أو مؤمنين ، إلا بعد أن نتتبع موقف العرب النصارى من حركة التحرير والفتح التي امتدت (إذا مانحينا مؤته وتبوك وبعث أسامة) بين ١٣ هـ/ ٦٣٤ م وهي السنة التي التقت فيها الجيوش الإسلامية بالروم في داثن[٨٣] ، ووادي عربة وبين سنة ١٩ هـ ، ٢٠ هـ/ ٦٤٠ م السنة التي استسلمت فيها قيسارية ، وفي خلال هذه السنوات استطاعت الجيوش الإسلامية أن تركز أقدامها في معارك قاسية ، أما بعد ذلك فقد كانت المقاومة يسيرة ليس فيها كبير جهد ، ولم تتخذ حركات الجيوش الإسلامية في الواقع شكل المعارك الكبرى ، إلا بعد أن جاء خالد بن الوليد من العراق ممداً لأهل الشام ، ومع إمداد خالد تبدأ مرحلة جديدة في تطور الفتح العربي ، وتتمثل هذه المرحلة في مظاهر ثلاثة : توحيد جيوش المسلمين ، توحيد القيادة تحت امرة خالد ، تغيير نظام التعبئة ، ويبدو من تتبع الفتوح أن فتح دمشق وهزيمة اليرموك كان يشبه إسلام زمام بلاد الشام والجزيرة إلى المسلمين ، لأنه مكن لهم أن يسيطروا على هذه المنطقة المتوسطة من الشام والتي تحمي ظهورهم

على ما ورد في كتابي بيوري Bury وميور .Bury, A History of The Later Roman Empire II, (Muir) P.269
Sir William Muir, The Caliphate, Its rise, Decline and Fall. P.140.

كذلك نجد فازيليف Vasiliev يشير إلى أن الانتصارات العسكرية الرائعة التي حققها العرب ، تعود إلى ذلك التذمر الديني لدى سكان سورية ، وأن الإسلام كان متأثراً بالمذهبين النسطوري واليعقوبي وأن علماء اللاهوت البيزنطيين نظروا إلى الإسلام على أساس أنه مذهب من المذاهب المسيحية المنشقة ، ولذلك فان شعوب المنطقة دعمتهم ، ويؤكد البروفسور غريغوار Gregoire على الصلة بين الإسلام والمونوفيزية Monophysitism « وأن يوتيخوس Eutyches أحد مؤسسي المذهب المونوفيزي هو الذي أوجد محمدا » .

Vasiliev, Byzantium and Islam in Byzantium, An Introduction to East Roman Civilization ed. Norman H.Baynes and H.St. B.Moss XI P.309.

(٨٢) حتي ، تاريخ العرب مطول ، ج ١ ، ص ١٩٧ .

(٨٣) البلاذري ، فتوح ص ١١٧ .

بالبادية ، ثم أن يتابعوا هجماتهم في الشمال وفي الجنوب ، أما في الجنوب فانتهى بهم الأمر إلى الاستيلاء على بيت المقدس ، بعد ثلاث سنوات من فتح دمشق سنة ١٧ هـ/٦٣٨ م وإلى الاستيلاء على قيسارية وهي المدينة الساحلية التي أتاح لها مركزها الساحلي أن تتلقى المدد والعون من الروم بحراً ، ولكنها استسلمت في ولاية معاوية لجندي دمشق والأردن ، أما في الشمال ، فقد توالت الفتوح بعد حمص ، واستطاعت الجيوش الإسلامية أن تدخل حلب وأنطاكية حصن المسيحية الحصين في هذه المنطقة الشرقية ، ثم توجهت بعد ذلك إلى الشرق نحو مدن الجزيرة ، فصالحها أهل الرها ونصيبين ، وكانت الجزيرة أسهل البلدان أمرا وأيسره فتحاً ، وكانت تلك السهولة مهجنة عليهم وعلى من أقام فيها من المسلمين[٨٤] .

موقف عرب الشام : ان الروايات التي يمكنها أن تقدم صورة عن تلقي عرب الشام للحركة الإسلامية ، تعطى المطالع للمرة الأولى انطباعاً سيئاً ، فأول هذه الاحداث هو قتل شرحبيل بن عمرو الغسّاني للحارث بن عمير الازدي ، رسول رسول الله (صلعم) إلى ملك بصرى[٨٥] ، وفي مؤتة في العام الثامن ــ ٦٢٩ م ، واجه زيد بن حارثه قائد الجيش الإسلامي المؤلف من ثلاثة آلاف مقاتل جيش الروم ، ويقتل زيد ، ثم جعفر بن أبي طالب ، وبعده عبد الله بن أبي رواحة ، ويستشهد من يستشهد ممن لم تحفظ لنا أسماؤهم ولا اعدادهم ، ويأخذ اللواء خالد بن الوليد . فكان أكبر همه أن يستنقذ الجيش وأن ينقذ المسلمين من هزيمة محققة ماحقة « فيدافع عن القوم ويحاشي بهم وينحاز ويتحيز[٨٦] » وأغلب الظن أن الروم لم يكونوا وحدهم هم الذين يحاربون بل كان العرب كذلك يحاربون العرب المسلمين ، ويقتلونهم ، ففي رواية محمد بن اسحاق عن عروة بن الزبير ، أن المسلمين نزلوا معان من أرض الشام ، فبلغ الناس أن هرقل قد نزل مآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم وانضمت إليه المستعربة من لخم وجذام ، وبلقين وبهراء وبَلِي في مائة ألف منهم عليهم رجل من بلي اسمه مالك[٨٧] ، وفي

(٨٤) الطبري ، ج ٤ ص ٥٤ .

(٨٥) تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ .

(٨٦) الطبري ، ج ٢ ص ٤٠ .

(٨٧) المصدر السابق ، ج ٣ ص ٣٧ ، تهذيب تاريخ دمشق ، ج ١ ص ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ .

تاريخ ابن عساكر، عن رجل من أهل البلقاء، أن الذين لقوهم يومئذ من أهل المشارق من النصارى من لخم وجذام وبلقين[٨٨].

وفي عام الوفود، أي في العام التاسع للهجرة، بعد أن فتح الله على المسلمين مكة، ومكّن لهم من البيت وبدأت الوفود تنطلق من كل صوب متجهة إلى النبي (صلعم)، لا نتبين فيما بين أيدينا من روايات المؤرخين صدى لذلك كله بين عرب الشام، إلا ما يذكره ابن هشام عن إسلام فَروة بن عمرو الجُذامي الذي بعث إلى رسول الله (صلعم) رسولاً بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء، وكان فروة عاملاً للروم على من يليهم من العرب، وكان منزله بمعان وما حولها من أرض الشام، ولكن الروم عندما بلغهم إسلامه حبسوه ثم صلبوه على ماءٍ يقال له عَفْراء بفلسطين[٨٩].

وإذا نحن تجاوزنا هذه الفترة الأولى إلى الفترة الثانية التي بدأ فيها الخليفة الأول تجهيز الجيوش وتوجيهها إلى الشام، نجد أن موقف العرب لم يكن في كثير من الأحيان استجابة أو تأييداً، وأن الروم كانت تضرب البعوث على عرب الضاحية وكانت تستنفرهم، فينفر إليها من بهراء وكلب وسليح وتنوخ ولخم وجذام وغسان[٩٠]. وكانت ولا شك تحارب بهم في المواقع المختلفة بل انها كانت تجد منهم من تستخدمه في التجسس والتطلع، ففي أجنادَين أرسل قائد عسكر الروم رجلاً عربياً من قضاعة من تزيد بن حَيْدان يقال له ابن هزارف، وطلب منه أن يدخل بين العرب وأن يقيم فيهم يوماً وليلة ثم يأتيه بأخبارهم[٩١]، وهناك رواية واحدة ينفرد بها سيف عن أولى مراحل الطريق إلى الشام حين «أمر أبو بكر خالد بن سعيد بن العاص أن ينزل تيماء وأن لا يبرحها وأن يدعو من حوله بالانضمام إليه فأقام فاجتمع إليه جموع كثيرة، وبلغ الروم عظم ذلك العسكر فضربوا على عرب الضاحية البعوث، وكتب خالد إلى أبي بكر بذلك وبنزول من استنفرت الروم ونفر إليها من بهراء وكلب وسليح... فكتب إليه أبو

---

(٨٨) تهذيب تاريخ دمشق، ج ١ ص ٩٩.

(٨٩) ابن هشام، السيرة النبوية ــ بيروت ١٩٧٥، ج ٤ ص ١٧٦.

(٩٠) ابن الأثير، الكامل، ج ٢ ص ٤٠٢.

(٩١) الطبري، ج ٣ ص ٤١٧، ٤١٨.

بكر: أقدم ولا تحجم، واستنصر الله، فسار إليهم خالد، فلما دنا منهم تفرّقوا وأعروا منازلهم ودخل عامة من كان تجمع له في الإسلام[٩٢]». وهنا لابد أن نتساءل عن قيمة هذه الرواية المفردة، وهل في الوسع أن نتحقق من صحتها، وهل دخل هؤلاء عامة في الإسلام وانضموا إلى جيش التحرير؟ ربما يغنينا عن ذلك رواية ابن اسحاق عن اليرموك وهو يصف قسوة المعركة واشتراك نساء المسلمين من قريش فيها، إذ أنه يخص القبائل العربية بهذا النص، «وكان انضم إلى المسلمين حين ساروا إلى الروم ناس من لخم وجذام، فلما رأوا جد القتال فرّوا ونجوا إلى ما كان قربهم من القرى وخذلوا المسلمين[٩٣]»، وفي رواية البلاذري أن هرقل جمع جموعاً كثيرة من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية وولى عليهم رجلاً من خاصته، وبعث على مقدمته جبلة بن الايهم الغسّاني في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم وعزم على محاربة المسلمين، فلما هزم الروم في اليرموك، وعقد أبو عبيدة لحبيب بن مسلمة الفهري على خيل الطلب، جعل يقتل من أدرك فانحاز جبلة بن الايهم إلى الأنصار فقال: «أنتم اخوتنا وبنو أبينا[٩٤]» وعندما بعث أبو عبيدة خالد بن الوليد إلى قنسرين بعد فتح حمص نزل بالحاضر، حيث التقى بجيش الروم وقتل قائد الجيش ومعظم من معه، فأرسل أهل الحاضر إلى خالد أنهم عرب وأنهم إنما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه، فقبل منهم وتركهم[٩٥]، ولكن عندما أغزى هرقل ثانية جيشاً عظيماً توجه نحو حمص واستمد أبو عبيدة خالدا الذي كان قد عينه على قنسرين، أمده خالد بمن معه، «فكفر أهل قنسرين وكان أكفر من هناك تنوخ[٩٦]».

أما قبيلة تغلب بن وائل فقد حاربت في البدء ضد جيش المسلمين وذلك لما اجتمع المسلمون بالفِراض[٩٧] سنة ١٢ هـ، «وحميت الروم وإغتاظت واستعانوا بمن

(٩٢) المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٨٩، ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٠٢، تهذيب، ج ١ ص ١٣١، ١٣٢.
(٩٣) الطبري، ج ٣ ص ٥٧١.
(٩٤) البلاذري، فتوح، ص ١٤٠، ١٤١.
(٩٥) الطبري، ج ٣ ص ٦٠١.
(٩٦) ابن العديم، زبدة الحلب في تاريخ حلب، تحقيق سامي الدهان، ج ١ ص ٣٠، ٣١، ابن حبيش، الفتوح، ص ١٤٧.
(٩٧) الطبري، ج ٣ ص ٣٨٣، والفراض تخوم الشام والعراق والجزيرة.

يليهم من مسالح أهل فارس، واستمدوا تغلب وإياد والنمر[٩٨]»، ولكن تغلب عادت وقاتلت مع العرب في سنة ١٣ هـ حين رأوا نزول العرب بالعجم فقالوا: «نقاتل مع قومنا[٩٩]» موقف عرب الضاحية يبدو إذن موقفاً واضحاً فهم لم يتلقوا الدعوة الجديدة بالترحاب بها والانضمام إليها وهم كذلك لم يولوها العطف والحدب، وقد قاتلوا إلى جانب أهل أرمينية والروم، فهل كان هذا كله اضطراراً واكراها؟ وكيف نفسر لحاق بعض القبائل بهرقل ومضيها معه إلى بلاد الروم، فقد لقي ميسرة بن مسروق العبسي عندما سلك درب بَغراس من أعمال أنطاكية إلى بلاد الروم، جمعاً للروم معهم عرب من غسّان وتنوخ يريدون اللحاق بهرقل[١٠٠]، كما ارتحلت قبيلة إياد بن نزار إلى أرض الروم، فكتب عمر إلى ملك الروم يطلب منه إعادتهم، فأخرجهم ملك الروم فخرجوا، فتمّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد، وخنس بقيتهم فتفرقوا فيما يلي الشام والجزيرة من بلاد الشام[١٠١].

* موقف النصارى عامة

لا يتميز موقف الروم بأكثر من أنه كان محاولة جاهدة عنيفة للوقوف دون امتداد هذه الموجة الجديدة العارمة، ومن الطبيعي أن يدرك الروم مركز بلاد الشام من امبراطوريتهم، وأن اقتطاعها سيؤدي بالتالي إلى اقتطاع مصر أيضاً وأنها كذلك تهديد لهم، فهم لهذا لن يتنازلوا عنها بيسر وبساطة، جهزوا كل ماقدروا عليه من جيوش، وخاضوا كل ما استطاعوا أن يخوضوا من معارك، واستنفروا كل ما كان في وسعهم أن يستنفروه من العرب، وأهل أرمينيا وسكان المقاطعات الأخرى، كما أن الروم لجأوا إلى استثارة مشاعر الجماعة الدينية، واستثمروا في ذلك رجال الدين، وتطالعنا التفاصيل التي وردت في بعض روايات المؤرخين، أن قواد الروم كانوا يقدمون أمامهم الشمامسة

---

(٩٨) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٨٣.

(٩٩) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٦٤.

(١٠٠) ابن الأثير، ج ٢ ص ٤٩٦.

(١٠١) الطبري، ج ٤ ص ٥٤، ٥٥.

والرهبان والقسيسين ليغروهم ويحضضوهم على القتال[١٠٢]، وأن هؤلاء الشمامسة والقساوسة كانوا جزءاً من الجيش، وسلاحاً من أسلحته، يقيمون إذا أقام ويرتحلون إذا ارتحل، ويخندقون إذا خندق، يثيرون فيه حماسة الدين «إذ ينعون له النصرانية[١٠٣]» ويبدو هذا الطابع الديني واضحاً في صنيع أشراف الروم الذين كانوا يرون أنهم في هذه الحروب إنما يمنعون النصرانية، فإذا لم يستطيعوا منعها، فلا عليهم أن يتخطفهم الموت، وقد انهوا رؤوسهم «لا يحبون أن يروا يوم السوء إذا لم يستطيعوا أن يروا يوم السرور» وقد حدث هذا غير مرة تجلل الفيقار وأشراف من أشراف الروم في معركة اليرموك وأصيبوا في تزملهم[١٠٤].

ولم يكن ذلك موقف القادة ورجال الدين، ولكنه كان موقف النصارى بشكل عام، فقد استطاع الروم استثارة العاطفة الدينية لدى العرب أكثر مما استطاعوا ذلك لدى النبط، إذ نجد تكراراً عند ابن الاعثم حول استخدام الروم لمن يليهم من نصارى العرب في حين أن المسلمين كانوا يستخدمون الانباط كجواسيس، وهؤلاء الأنباط قوم نصارى كما يقول ابن الاعثم، «غير أنهم كانوا إلى المسلمين لبرهم أميل فكانوا فُيُوجاً[١٠٥] للمسلمين وجواسيس وكان الروم لا يتهمونهم في شيء من ذلك[١٠٦]».

على أن موقف النصارى لم يكن موقفاً جامداً، ولم تلازمه هذه الصلابة في كل مراحل الفتح، فبعد أن كانت هزيمة اليرموك وبعد أن أمسك المسلمون بزمام الموقف حين تم لهم الاستيلاء على الأقسام الوسطى من الشام وأضحى تقدمهم نحو الجنوب باتجاه القدس ونحو الشمال باتجاه الجزيرة أمراً مضمون النتائج، بعد هذا أخذت النصرانية سبيلاً آخر في مداراة الفاتحين المسلمين، فارتضى أهل ايلياء الصلح، وقيل أنهم طلبوا أن يتولى الخليفة نفسه العقد[١٠٧]، وإذا كان بطريرك أورشليم صفرونيوس قد

(١٠٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٩٣، ٣٩٥، تهذيب ج ١ ص ١٦٤. ابن حبيش، الفتوح، ص ١٨٥.
(١٠٣) الطبري، ج ٣ ص ٣٩٥.
(١٠٤) المصدر السابق، ج ٣ ص ٤٠٠ ــ تهذيب ج ١ ص ١٧٤.
(١٠٥) ابن الأعثم، فتوح، ج ١ ص ١٤٤، الفيج هو رسول السلطان الذي يسعى على رجليه، فارسي معرب.
(١٠٦) المصدر السابق، ج ١ ص ١٤٣، ١٤٤، ابن حبيش، الفتوح، ص ١٣١.
(١٠٧) الطبري، ج ٣ ص ٦٠٧، ٦٠٨.

استقبل عمر وطاف به على أنحاء البلدة وأراه الأماكن المقدسة[١٠٨]، فان أرطبون الروم والتذارق لحقا بمصر[١٠٩].

أما الجزيرة فكانت أسهل البلدان وأيسرها فتحاً[١١٠]، إذ سرعان ما صالح أهل الجزيرة على الجزية[١١١] وليس من شك في أن الموقع الجغرافي للجزيرة بين العراق والشام وقد خضعا للمسلمين، يجعل من اليسير تطويقهم وإمداد كل من الجيشين في الشام والعراق أحدهما للآخر، وكان ذلك أحد العوامل الكبرى التي أملت على النصارى هذا الموقف، وليس أدل على ذلك من رواية سيف عن السرى عن شعيب: «أنه حين كتب عمر إلى سعد بتوجيه القعقاع في أربعة آلاف من جنده مدداً لأبي عبيدة حين قصدته الروم وهو بحمص، سلك سهيل بن عدي وجنده طريق الفراض، حتى انتهى إلى الرقة، وقد أرفض أهل الجزيرة عن حمص إلى كورهم حين سمعوا بمقبل أهل الكوفة، فنزل عليهم فحاصرهم حتى صالحوه، وذلك أنهم قالوا فيما بينهم «أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء، فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل وسط من الجزيرة فرأى أن يقبل منهم[١١٢]».

وهكذا نرى أنه من العسير أن يطمئن الانسان إلى أن الخلاف المذهبي بين أتباع الكنيسة السورية المونوفيزية التي تؤمن بأن للمسيح طبيعة إلهية واحدة والكنيسة البيزنطية التي تؤمن بما أقر مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م من إقرار طبيعتين للمسيح الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية كان له من أثر في الترحيب بالمسلمين، وتسهيل مهمتهم أو الميل إليهم، وأن العداء استفحل إلى أن يفسح المجال لدين جديد أقل ما يوصف به أنه لا يرتضي المذهبين معاً وإنما كان يحل المسيح عليه السلام محل الإيمان بنبوته وكتابه ولكنه يجرده من الوهيته بطبيعتها أو بطبيعتيهما كلتيهما، فلا يرى فيه غير

---

(١٠٨) حتي تاريخ العرب مطول، ج ١ ص ٢٠٨ نقلاً عن تيوفانس.

(١٠٩) الطبري، ج ٣ ص ٦٠٨.

(١١٠) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٤.

(١١١) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٣.

(١١٢) المصدر السابق، ج ٤ ص ٥٤.

ما يرى في محمد بشراً رسولاً، وصحيح أن الإسلام قد أتاح لهؤلاء النصارى قدراً من الحرية لم يجدوه عند البيزنطيين، ولكن هل كان نصارى العرب يعرفون مسبقاً كيف سيسير المسلمون بهم وكيف سيعاملونهم؟. ان من واجبنا أن لا ننسى التفريق بين النظر إلى الأمور قبل وقوعها وبين النظر إليها بعد أن تقع.

لقد دخل الإسلام بلاد الشام فلقي من مقاومة النصارى مثل ما لقي من مقاومة العرب على اختلاف من البواعث وتباين في الأغراض، ولعل حركة الفتح وجدت منفذاً من خلال هذا الاختلاف والتباين، أما الأسباب الكثيرة التي يحاول المؤرخون أن يفترضوها سواء ما اتصل منها بالروم أو العرب أو النصارى عامة فهي لا تعدو أن تكون أسباباً واهية، لا تدل على الحقيقة التي تكمن في أنه كان في حركة الإسلام دعوة، وأن أصحابها يتمتعون بروح معنوية رفيعة لم تكن موجودة لدى القوى المعادية، فالروم ومرتزقتهم يوقنون أن الأرض لم تكن أرضهم، والعرب يظنون أن المهاجرين سيقاسمونهم نعمة العيش، فإذا جد الجد فسيلتقون معهم بحبل من قرابتهم لهم ولذلك فإنه ما أن ثبتت أقدام المسلمين في المنطقة ورأوا معاملتهم الجيدة ووفاءهم لأهل الذمة، انقلبوا من أعداء إلى مؤيدين، فعن أبي حفص الدمشقي أن المسلمين عندما أرادوا أن يردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنهم لن يستطيعوا نصرتهم والدفع عنهم، قال أهل حمص، «لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ولندفعن ضد هرقل عن المدينة مع عاملكم[113]».

* موقف اليهود والسامرة

ليست لدينا إشارات يمكنها أن تعطينا صورة واضحة عن موقف اليهود والسامرة من حركة التحرير العربية الإسلامية، إلا أن معاملة أبي عبيدة الخاصة للسامريين، وإسكان معاوية اليهود في طرابلس ومدن ساحلية أخرى، تجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن العداء كان مستحكما بين هؤلاء والروم البيزنطيين، وتعود جذور العداء مع اليهود إلى

(١١٣) البلاذري، فتوح، ص ١٤٣.

عهد الرومان عندما هدم تيتس Titus سنة ٧٠ م مدينة القدس، وعندما أعاد هادريان بناء المدينة أطلق عليها اسم إيليا كابيتولينا، وهو الاسم الذي يرد في مصادرنا (ايلياء) وبنى هيكلا لجوبيتر مكان الهيكل القديم، مما أدى إلى اندلاع ثورة قضي عليها سنة ١٣٥ م وأعدم الأسرى أو بيعوا كرقيق، ومنعوا من الاجتماع للصلاة أو من دخول القدس وأطلق على منطقة يهوذا اسم فلسطين السورية Syria Palaestina وبعد انتشار المسيحية تأثر اليهود من الاعتراف الرسمي لمنافسيهم المسيحيين كما أنهم أبعدوا بعد سنة ٤٢٨ م عن الوظائف المدنية والعسكرية[١١٤].

ويبدو أن اليهود بقوا مبعدين عن القدس، إذ نلاحظ في النص الذي يورده الطبري أنه من ضمن الشروط التي منحها عمر بن الخطاب لأهل ايلياء «أن لا يسكن بايلياء أحد من اليهود[١١٥]». كما يرد في الروض المعطار أنه بعد أن تم الاتفاق ما بين أهل بيت المقدس وأبي عبيدة بن الجراح على أن تسلم مفاتيح المدينة إلى الخليفة نفسه، كتب عمر كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وذراريهم ونسائهم وكنائسهم، واشترطوا أن لا يساكنهم اليهود فيها[١١٦].

إن هذه الروايات على قلتها تشير إلى ذلك التوتر الذي كان قائماً بين اليهود والسلطة الحاكمة منذ عهد الرومان حتى الفتح العربي، ولذلك لا نشك بأن اليهود رحبوا ضمنياً بمجيء المسلمين وإن لم تكن لدينا روايات تؤكد ذلك، إلاّ أنه عندما ردّ المسلمون على أهل حمص ما كانوا أخذوا من الخراج لأنه بلغهم أن هرقل قد جمع الجموع، نهض اليهود وقالوا: «والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّ أن نغلب ونجهد، فأغلق اليهود وسكان حمص من النصارى الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود[١١٧]».

---

(١١٤) E.B. Art. Syria, History of Syria

(١١٥) الطبري ج٣ ص٦٠٩.

(١١٦) عبد المنعم الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ١٩٧٨، ص٦٨، ٦٩.

(١١٧) البلاذري، فتوح ص١٤٣.

أما السامريون فهم الذين يدّعون بأنهم ينتمون إلى قدماء اليهود الذين كانوا مقيمين في السامرة والذين لم يتعرّضوا للسبي الآشوري سنة ٧٢١ ق . م لذلك فهم يدعون أنفسهم أبناء إسرائيل Bene Yisrael أما اليهود فإنهم يدعونهم بالسامريين بينما يطلق عليهم في التلمود اسم كوتيم Kutim دلالة على أنهم من سلالة الكوشيين Cuthaeans الذين كانوا مقيمين في بلاد ما بين النهرين ثم نقلهم الآشوريون إلى السامرة بعد غزو سورية ليحلوا محل اليهود الذين تم سبيهم إلى أماكن بعيدة ، وقد تمّ انعزال هذه الطائفة كلياً عن المجتمع اليهودي بعد رجوع اليهود من السبي البابلي ، ولم يسمحوا لهم بأن يشاركوا في بناء الهيكل الثاني في القدس ، ونتيجة لذلك بنى السامريون في القرن الرابع ق . م هيكلهم الخاص في نابلس عند جبل جريزيم ، Mt . Gerizim[١١٨] وفي رواية للبيروني أن السامريين أعانوا نبوخذ نصر ودلوه على نقاط الضعف عند اليهود حين غزا مملكة يهوذا وسبى اليهود إلى بابل لذلك لم يمسهم بأي أذى « وكانت السامرة أعانوه ودلوه على عورات بني إسرائيل فلم يحركهم ولم يقتلهم ولم يسبهم وانزلهم فلسطين من تحت يده[١١٩] ... » .

وبالرغم من العداء بين اليهود والسامريين ، إلا أن وضع السامريين لم يكن بأفضل من وضع اليهود ، وكان أحلك عصر مرّ بالسامرة هو العهد الذي بدأ بهادريان وانتهى بقضاء العرب على سلطان البيزنطيين في الشام[١٢٠] وقد قام السامريون بثورات زمن الامبراطور زينو (٤٧٤ ــ ٤٩١) م فطردهم من مقرهم في جبلهم المقدس جريزيم وبنى فيه كنيسة ، وثاروا زمن الامبراطور جوستنيان ، فنكّل بهم ودمّر معبدهم ، وأقام كنائس في المدينة ، ولذلك فلا شك أن السامريين قد رحبوا بفتح العرب لفلسطين أحرّ ترحيب لأن هذا الفتح حرّرهم من ربقة الحكام البيزنطيين والكنيسة وخلصهم من استبداد هؤلاء وتعطشهم إلى الانتقام[١٢١] .

E.B. Art. Samaritan

(١١٨)

(١١٩) البيروني ــ الآثار الباقية في القرون الخالية ، طبعة ليبزيغ Leipzig عام ١٩٣٢ م ص ٢١ .

(١٢٠) دائرة المعارف الإسلامية المترجمة عن الأصلين الانجليزي والفرنسي ــ طبعة انتشارات جهان مهران بوذر حميري ، مادة السامرة .

(١٢١) المصدر السابق ، مادة السامرة .